الإحلال وأثره على المعنى في سورة طه دراسة نصية

د. حنفي أحمد بدوي علي*

الإحلال لغة :

هو إنزال شيء مكان شيء ،حيث يقال : حللت بالرجل ،وأحله به ،جعله يحل ..... ويقال :حللت بالرجل وحللته نزلت به ،ونزلته ،وحللت القوم ،وحللت بهم ،ويقال:أحل فلان أهله بمكان كذا وكذا إذا أنزلهم(١).

الإحلال اصطلاحا :

لقد كان النحاة أحيانا في درسهم يصفون الظاهرة اللغوية ،ويرصدونها دون أن يضعوا لها تعريفا جامعا مانعا ، أو مصطلحا علميا كما نعرفه في حاضرنا ، وقد وردت الإشارة إلى الإحلال عند القدماء ، ومن ذلك ما ذكره ابن الأنبا ري :"قد يستغنى بالحرف عن الحر في بعض الأحوال إ ذا كان في معناه "(٢)، ويذكر أيضا "قد يستغنى ببعض الألفاظ إذا كان في المذكور دلالة على المحذوف "(٣) ،ويقول السيوطي :"قد يستغنون بالشيء عما هو في معناه"(٤).

فالإحلال اصطلاحا إذاً هو استبدال عنصر بآخر وإحلاله محله ، سواء أكان هذا اسما أم فعلا أم حرفاً (٥) .

الإحلال عند القدماء:

ذكر سيبويه أن العرب " يستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم حتى يصير ساقطاً ".(٦) ويقول ابن جني :"وذلك أنا نرى العرب قد غيرت شيئا من كلامهم ،من صورة إلى صورة ، فيجب أن تتأتى لذلك وتلاطفه ." (٧) أي يشترط أن يتوافق اللفظ المستغنى به مع أمثلتهم ــ أي العرب ــ وصورهم كما كان

* مدرس العلوم اللغوية كلية الآداب والعلوم بالكفرة ــ جامعة قار يونس

المحذوف (المستغنى عنه) موافقا . وعن ذلك يقول ابن جني :" العرب إذا غيرت كلمة من صورة إلى أخرى ، اختارت أن تكون الثانية مشابهة لأصول كلامهم ومعتاد أمثلتهم ، وذلك أنك تحتاج إلى أن تنيب شيئا عن شيء ،فأولى أحوال الثاني بالصواب أن يشابه الأول ،ومن مشابهته له أن يوافق أمثلة القوم ،كما كان المناب عنه مثالا من مثلهم أيضا ".[٨]

ويشترط أن يكون الكلام بعد الاستغناء وقبله جيدا ، ولكن بعده أجود وأبلغ، وهذا ما عناه سيبويه بقوله :"لو حسن الكلام بالذي لايستغنى عنه لحسن الذي يستغنى عنه "[٩] أي :إن العرب قد انتقلت بالإحلال من كلام فصيح إلى كلام أفصح وأبلغ وأجود ،بل أكثر قدرة على إيصال المعنى وتجويده.

الإحلال عند المحدثين:

جعل المحدثون الإحلال أحد عناصر التحويل ــ في علم اللغة التوليدي التحويلي ــ التي تدخل الجملة مدللين بهذه الجوانب التحويلية ، ومنها الإحلال ، على أن التحويليين لم يرفضوا التقدير أساسا ،فهم يشيرون في كتاباتهم دائما إلى الحذف والزيادة وإعادة الترتيب ،وغير ذلك ، وإشاراتهم تلك تلتقي مع إشارات القدماء النحويين العرب." [١٠]

أما الإحلال في علم اللغة النصي Text linguistics ، فإن علماء هذا العلم قد عبروا عن ذلك عند حديثهم عن المرجعية ،أو الإحالة القبلية بمصطلح Anaphora ،وذلك صدد الحديث عن إحلال المضمر محل الظاهر ،"ومعنى مصطلح Anaphora هو استعمال كلمة ،أو عبارة تشير إلى كلمة أخرى ،أو عبارة أخرى سابقة في النص أو المحادثة. على سبيل المثال : محمد ركب الدراجة ،.لكن عليا لم يركبها ،فالضمير "ها " يشير إلى الدراجة وبهذا أبدل الاسم بالضمير ." [١١]

وتسميها الدكتورة إلهام أبو غزالة "الأشكال البديلة "[١٢]، وذلك في إطار حديثها عن التضام عند علماء النص .

وعليه فإن الإحلال عند التحويليين والنصيين يعني استبدال عنصر بـــآخر وإحلاله محله، غير أن النصيين جعلوا المرجعية أو الإحالة ــ ولاسيما بين الضمير والإسم الظاهر ــ من وسائل التماسك النصي .

وتعددت أنواع وأشكال الإحلال بين إحلال الإسم مكان الاسم ،وإحلال الحرف مكان الحرف، حيث انضوت تحت كل نوع منها أشكال لإحلال أسماء وحـــروف فيمـــا بينها، وإليك التفصيل :

الإحلال في المبني للمجهول:

يخبرنا الواقع اللغوي أن الفاعل إذا حذف حل محله المفعول به ،أو الجـــار والمجرور ،أو المصدر ،وأخذ حكمه ،حيث إنه يرفع ويؤنث إن لزم الأمر، وغيـــر ذلك من الأحكام . يقول المبرد في ذلك :"ونقول : دُفع إلى زيد درهم ،فيرفع درهم ؛ لأنك جررت زيداً، فقام الدرهم مقام الفاعل ." [١٣]

أسباب الإحلال في المبني للمجهول :

هناك عدة أسباب تدعو إلى الإحلال في باب المبني للمجهول ،فقـــد يكـــون السبب لفظيا ،وذلك: (١) لقصد الإيجاز في العبارة، نحو قوله ــ تعالى ــ :"ومـــن عاقب بمثل ما عوقب به ".{الحج : ٩٠} .

(٢) المحافظة على السجع في الكلام المنثور .

(٣) المحافظة على الوزن في الكلام المنظوم .

وقد يكون السبب لحذف الفاعل وإحلال نائب الفاعل محله سبباً معنوياً ،ومن ذلك :

كون الفاعل معلوما للمخاطب حتى لا يحتاج إلى ذكره .

أن يكون مجهولا للمتكلم ،فهو لا يستطيع تعيينه للمخاطب، وليس في ذكره فائدة.

ومنها رغبة المتكلم في الإبهام على السامع .

ومنها الرغبة في إظهار تعظيم المتكلم للفاعل ،أو تحقيره(١٤) .

وقد ورد هذا النوع من الإحلال في المبني للمجهول في سورة طه في عدة مواضع، جاءت على النحو التالي : قال تعالى:"فلما أتاها نودي يا موسى " {طه :١١} فالبنية الأساسية لجملة نودي يا موسى، هي: نادى الله يا موسى

فعل ماض + فاعل + جملة النداء

ولكن حدث لبناء الجملة الأساسي تحويل بحذف الفاعل وإحلال نائب الفاعل محله وهو ضمير مستتر، فأصبح البناء الظاهري للجملة هو: نودي يا موسى

فعل ماض +ضمير مستتر (تائب فاعل)+ جملة النداء

فحذف الفاعل هنا لغرض معنوي ،وآخر لفظي، فالمعنوي لتعظيم الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى، وأما الغرض اللفظي فهو الإيجاز ،و الاختصار ،وهذا الإيجاز جاء اعتمادا على فهم المخاطب ،وإدراكه لكنه الضمير المستتر.

ومن ذلك قوله ــ تعالى ــ :"فاستمع لما يُوحى". {طه:١٣} فلو نظرنا إلي الجملة "استمع لما يوحى" لوجدنا أن الفعل المضارع مبني للمجهول، فالبنية الأساسية للجملة هي: يوحي الله التوراة

فعل مضارع +فاعل + مفعول به

ولكن حدث لبناء الجملة الأساسي تحويل بالإحلال حيث حذف الفاعل وحل محله نائب الفاعل وهو الضمير المستتر، العائد على المفعول به المحذوف إيجازا واختصاراً ،وهذا الإحلال يضفي سبكاً على بنية الجملة، وهذا الإحلال اعتمد على فهم السامع ،لنائب الفاعل المقدر، وعمل هذا الحذف أيضاً على تناسب فواصل الآيات ،مما أعطى جرساً موسيقيا في نهاية الآيات. فلو ذكر المحذوف في الآيات لما كان هذا التناسب والتناغم لدى السامع.

ومن الإحلال مع المبني للمجهول ،قوله ــ تعالى ــ :"إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجزى كل نفس بما تسعى " {طه: ١٥} . فالجملة الفعلية "تجزى كل نفس" بنيتها الأساسية، هي : يجزي الله كل نفس

فعل + فاعل + مفعول به + مضاف إليه

فهذه جملة فعلية إنشائية،مثبتة، حدث لتركيبها تحويل بالحذف والإحلال، فأصبحت البنية الظاهرة للجملة هي:

تُجزى كل نفس فعل مبني للمجهول + نائب فاعل +مضاف إليه

فالغرض من حذف الفاعل وإحلال المفعول به محلة هنا، هو العلم بالفاعل ،وهو الله سبحانه وتعالى ،لاستحالة وجود من يجاري ،ويحاسب غير الله يوم القيامة .فاجتمع الغرض المعنوي و هو العلم بالفاعل، مع الغرض اللفظي وهو الاختصار والإيجاز ،ما كسا الجملة بياناً، وأحاطها جلالاً.

ومن ذلك أيضاً قوله ــ تعالى ــ :"ولتصنع على عيني" {طه :٣٩}

فهذه الجملة تأتي في سياق الحديث من المولى ــ عز وجل ــ عن فضله على موسى ــ عليه السلام ــ وأن الله حفظه من فرعون صغيرا، ويحفظه من فرعون وهو كبير .

والبنية الأساسية للجملة، هي : أصنعك على عيني

فعل + فاعل + مستتر +مفعول به + جار ومجرور

وحدث لبنية الجملة الأساسية تحويل بالحذف ،والإحلال، حيث حذف الفاعل، وتحول المفعول به الضمير المتصل الظاهر، إلى ضمير مستتر، فأصبح البناء الظاهري للجملة ،هو : تُصنع عيني على

فعل مبني للمجهول+ نائب فاعل (مستتر) + جار ومجرور

فالخطاب من الله ــ عز وجل ــ إلى موسى، وحذف نائب الفاعل، وهو الضمير "أنت" العائد على موسى، وذلك حتى لا يكون فيه أي نوع من الزجر من الله، إلى موسى، وذلك لتهدئة روع موسى، من أن يخاف من فرعون، وذلك خلافاً لخطاب الخضر لموسى، في سورة الكهف، عندما سأل موسى عن أفعال الخضر ،التي تخالف المنطق، فعندما خالف موسى وعده مع الخضر قال له :"ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً "{الكهف : ٨٥} فذكر الضمير هنا يحمل الزجر لموسى، أما في خطاب الله له، ففيه السكينة لنفس موسى ــ عليه السلام ــ

ومن ذلك قوله ــ تعالى ــ :"إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى "{طه : ٤٨} فالبنية الأساسية لجملة "أوحي إلينا أن العذاب على من كذب ....." هي:أوحى الله أن العذاب على من كذب .....

فعل ماض + فاعل + جار ومجرور + جملة أن (في محل نصب مفعول به)

ولكن حدث لبنية الجملة تحويل بالإحلال، حيث حل المفعول به محل الفاعل، فأصبح البناء الظاهري للجملة هو : أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى

فعل ماض مبني للمجهول + جار ومجرور +جملة أن (نائب فاعل)

فحذف الفاعل هنا وهو لفظ الجلالة، تقديساً له من الذكر أمام فرعون، لأنه قد يسيء للخالق ــ سبحانه ــ لأنه كان يدعي الإلوهية .

ومن الإحلال قوله ــ تعالى ــ على لسان فرعون :" وأن يحشر الناس ضحى "{طه:٥٩} فالجملة الفعلية "يحشر الناس ضحى" بنيتها الأساسية هي : يحشر الجنود الناس ضحى

فعل مضارع + فاعل +مفعول به + ظرف

وحدث لبناء الجملة تحويل بالإحلال، حذف الفاعل، وحل المفعول به محله، فأصبح البناء الظاهري للجملة ،هو : يحشر الناس

فعل مضارع مبني للمجهول + نائب الفاعل

وحذف الفاعل هنا من الحديث على لسان فرعون، لإبهام الفاعل أمام المخاطبين، وذلك لتهويل قوة جنوده، ومن يأتمرون بأمره ،ليدخل الفزع والخوف في قلب موسى، وهارون، قبل بدء المناظرة بين موسى والسحرة .

ومن الإحلال قوله ــ تعالى ــ على لسان هارون : " يا قوم إنما فتنتم به " {طه :٩٠} فالجملة الفعلية "فتنتم به" بنيتها الأساسية هي : فتنكم السامري به

فعل ماض +مفعول به +فاعل + جار ومجرور

وحدث لبنية الجملة الأساسية تحويل بالحذف و الإحلال فأصبح البناء الظاهري للجملة، هو : "فتنتم به " فعل ماض مبني للمجهول + نائب فاعل + جار ومجرور

فبعد حذف الفاعل ،تحول ضمير النصب وهو الكاف إلى ضمير الرفع وهو تاء الفاعل للجمع، والذي في محل رفع نائب فاعل، وحذف الفاعل هنا استحقاراً ،وإهمالاً له، وكذلك تحمل معنى الخوف من حدوث انشقاق وفتنة بين بني إسرائيل، في غياب موسى إذا حدث احتكاك بين هارون، وبين السامري . ومما يدل على ذلك كلام هارون لموسى بعد رجوعه من لقاء ربه، وكان مغاضباً لعبادة بني إسرائيل العجل، فقال له هارون :"إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم يرقب قولي "{طه:٩٤}

ومن الإحلال في المبني للمجهول، قوله ــ تعالى ــ :"وإن لك موعداً لن تخلفه "{طه : ٩٧} فجملة "لن تخلفه"بنيتها الأساسية، هي :لن يخلف الله الميعاد

لن + فعل + فاعل + مفعول به

وحدث لهذه البنية تحويل بالإحلال، بعد الحذف فأصبح البناء الظاهري للجملة، هو :لن تخلفه

لن + فعل مضارع مبني للمجهول + نائب فاعل (ضمير مستتر) + مفعول به

فحذف الفاعل، واستتر نائب الفاعل ،لتسليط الفعل "تخلف" على المفعول به وهو الضمير العائد على السامري، لتخصيصه بالوعيد في يوم المعاد ،أي اليوم الآخر .

ومن ذلك أيضاً قوله ــ تعالى ــ"وكذلك اليوم تُنسى"{طه:١٢٦}فجملة "تنسى"بنيتها الأساسية،هي: ينساك الله

فعل مضارع + مفعول به +فاعل

ولكن بعد التحويل بالحذف و الإحلال، أصبح البناء الظاهري للجملة، هو : تُنسى

فعل مضارع مبني للمجهول + نائب فاعل (ضمير مستتر)

وذلك فحذف الفاعل، ونائب الفاعل بعد ذلك لغرض لفظي، وهو الإيجاز والاختصار ،ولتوافق الفواصل للآيات ،وعدم ذكر المفعول به بعد أن تحول إلى نائب فاعل، يحمل معنى عدم الاهتمام من المتحدث.

الإحلال في النعت :

من التراكيب النحوية التي يحدث فيها الإحلال النحوي ويؤثر ذلك الإحلال على المعنى ،هو إحلال النعت محل المنعوت ذلك إذا دل عليه دليل في سياق الجملة،ومن ذلك قوله ــ تعالى ــ :"أن اعمل سابغات "{سبأ:١١}، و المعنى دروعاً سابغات . (١٥) وقد ورد هذا النمط في سورة طه في عدة مواضع، منها قوله ــ تعالى ــ :"واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء " {طه:٢٢}، فجملة "تخرج بيضاء " بنيتها الأساسية هي : تخرج يداً بيضاء، ولكن حدث لبناء الجملة تحويل بحذف المنعوت، وإحلال النعت محله ،فأصبح البناء الظاهري للجملة، هو : تخرج بيضاء فالنعت حل محل المنعوت وأخذ حكمه الإعرابي، وهذا الإحلال يحمل معنى الاهتمام بالصفة الجديدة التي ظهرت بها يد موسى ــ عليه السلام ــ فكأن المنعوت ،وهي يد موسى أصبحت نفس النعت الذي حل محلها في بنية الجملة .

ومن ذلك قوله ــ تعالى ــ :"لا تفتروا على الله كذباً " {طه:٦١}

فبناء الجملة الأساسي هو : لا تفتروا على الله شيئاً كذباً، فحذف المنعوت، وموقعة الأصلي مفعول به، وحل محله النعت، وذلك لجعل الفعل نفسه الذي يفعله السحرة كذباً في حد ذاته، لا موصوفاً بالكذب فقط .

ومن ذلك ،قوله ــ تعالى ــ :"ولعذاب الآخرة أشد وأبقى "{طه:١٢٧}فبنية الجملة الأساسية هي :

ولعذاب الدار الآخرة أشد وأبقى . ولكن حدث لبناء الجملة تحويل بالإحلال حيث حذف الموصوف، وحل محله النعت، حيث حذف لفظ الدار وحل محله لفظ الآخرة، التي كان ينكرها الكافرون، حتى تكون صورتها حاضرة في أذهان المكذبين بها، وكذلك لتعجيل البشرى السيئة لهؤلاء المكذبين .

الأشكال البديلة :

من وسائل التضام، والسبك في التركيب اللغوي، الأشكال البديلة، وهي كلمات قصيرة اقتصادية ليس لها محتوى ذاتي، وإنما تقوم في ظاهر النص، مقام تعبيرات تتصف بإثارة محتوى أكثر تعييناً، وتساعد هذه التعبيرات مستعملي النص على الاحتفاظ بالمحتوى، وهو مهيأ في موقع التخزين النشط، دون حاجة منهم لإعادة ذكر كل شيء بتفصيلاته، وأشهر نوع من الأشكال البديلة هو الضمائر، التي تقوم مقام الأسماء، أو عبارات الأسماء التي تشاركها المدلول . (١٦)

ويطلق مصطلح الإشارة اللاحقة على استعمال شكل بديل لاحق ؛ لتعبير يشاركه في المدلول، وتعد الإشارة اللاحقة الأكثر شيوعاً في حالات اشتراك المدلول . (١٧) ويطلق مصطلح الإشارة السابقة على استعمال الشكل البديل الذي يسبق التعبير المشارك له في المدلول . (١٨) وتعددت الأشكال البديلة في سورة طه .

أولاً:الإشارة السابقة :

ورد هذا النمط في سورة طه في ثمانية مواضع على النحو التالي:

قوله ــ تعالى ــ :"قال هي عصاي "{طه:١٨} فالضمير "هي" إشارة سابقة إلى على اسم لاحق له هو لفظ "عصاي"وذكر هذا الضمير سابقاً للاسم المشار إليه، للتمهيد لذكر الاسم التالي، ليكون حاضراً في ذهن المتلقي .

ومن ذلك قوله تعالى :"فإذا هي حية تسعى "{طه:٢٠} فالضمير "هي" إشارة سابقة إلى كلمة تالية هي "حية"، فهذا اللفظ يدل على أن العصا التي كانت في يد موسى هي نفسها الحيه التى صارت تسعى .

وكذلك قوله ــ تعالى ــ على لسان السحرة في مخاطبتهم لفرعون :"إنما تقضي هذه الحياة الدنيا "{طه:٧٢} فكلمة "هذه"إشارة سابقة إلى كلمة تالية لها هي "الحياة الدنيا"، فهذه الإشارة تحمل معنى الاحتقار للدنيا في نظر السحرة، بعد أن دخل الإيمان قلوبهم، وكذلك عدم الاكتراث بما يحدث فيها من مصائب، فكل ما يحدث فيها من مصائب هين، مقابل صدق الاعتقاد في حياة أخرى، يأمل فيها السحرة بعد إيمانهم بالله .

ولو نظرنا إلى قوله ــ تعالى ــ :"قال هم أولاء على أثري "{طه:٨٤} نجد الإشارة السابقة "هم" في كلام موسى مع ربه عندما سأله عن قومه، نجد أن تلك إشارة لاسم تال لها وهو "أولاء" فبالإضافة للتمهيد الذهني الذي تحمله الإشارة ،تحمل معنى الرغبة ــ من موسى ــ في إطالة الحديث مع ربه سبحانه وتعالى .

ومن الإشارة السابقة قول بني إسرائيل عند عبادتهم للعجل :"فقالوا هذا إلهاكم وإله موسى فنسي "{طه:٨٨} فالإشارة السابقة "هذا" تشير إلى كلمة تالية هي "إلهكم" واستخدام هذه الإشارة من بني إسرائيل تحمل معنى التقدير، والتقديس منهم لهذا العجل .

وهناك نوع آخر من الإشارة السابقة وهي الإشارة إلى جملة، ومن ذلك قوله ــ تعالى ــ :" كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق "{طه:٩٩} فالإشارة السابقة "كذلك" تشير إلى جملة تالية لهذه الإشارة وهي جملة "نقص عليك من أنباء

ما قد سبق"، فالإشارة هنا ليست إشارة إلى كلمة بل هي إشارة إلى جملة، وتلك الإشارة مهدت للجملة التالية، في ذهن المتلقي، وتجعل المتلقي في حالة ترقب وانتظار، لما تشير إليه تلك اللفظة غير محددة المعني والذي يريد المتلقي معرفة محتواها .

ومنه أيضاً قوله ــ تعالى ــ :"وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً"{طه:١١٣} فالإشارة "كذلك" ممهدة لجملة تالية وهي "أنزلناه قرآناً عربياً" فالإشارة خلقت في ذهن المتلقي فراغاً ينتظر أن يُملأ، فتأتي الجملة المشار إليها لتملأ هذا الفراغ الذهني لدي المتلقي، وهذا أسلوب في السبك التركيبي للجملة .

ثانياً : الإشارة اللاحقة :

إذا انتقلنا إلى الحديث عن الإشارة اللاحقة، وأثرها على المعنى في سورة طه، وجدنا أن هذا النوع ورد بكثرة فيها، وردت منها صور مختلفة، من الإشارة إلى مفرد، والإشارة إلى جملة، فنعرض لبعض النماذج بالتحليل، ثم نذكر بعد ذلك بقية المواضع .

الإشارة إلى مفرد :

مما وردت فيه الإشارة اللاحقة إلى كلمة مفردة، قوله ــ تعالى ــ :"الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما"{طه:٥ــــ ٦} فالضمير في "له"إشارة إلى كلمة مفردة سبق ذكرها هي"الرحمن"،وذكر الضمير أغنى عن إعادة الاسم مرة أخرى،فحل الضمير محل الاسم، وأغنى عن ذكره، فالإحلال هنا من وسائل الإيجاز،وكذلك الضمير يثير ذهن المتلقي، ليربط واقع الكلام الحالي ،بما سبقه من كلام،فالنص القرآني يثير المتلقي ليجعله مشاركاً في فهم النص،وصناعة المعنى .

ولو نظرنا إلى الضمير في "وما بينهما" نجده يشير إلى" السموات ،والأرض " فأغنى ضمير المثنى عن تكرار الكلمتين، وهذا أدى إلى عملية سبك للنص القرآني ،وكذلك أبعد المتلقي عن الملل من تكرار الكلمات.

ومن ذلك قوله تعالى :"الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى"{طه:٨} فالضمير "هو" والهاء في "له"يعود كل منها إلى لفظ الجلالة الذي سبق ذكره،فلولا إحلال هذه الضمائر هنا محل الأسماء، لكان السياق هو:الله لا إله إلا الله لله الأسماء الحسنى ،ولكن الضمير هنا أغنى عن التكرار للألفاظ، مما أضفى جرساً موسيقياً للآية بتناسب فواصل الآيات، وذلك جعل الآية أشد وقعاً، وتأثيراً،على السامعين .

ومن الإحلال قوله ــ تعالى ــ :"إن الساعة آتية أكاد أخفيها "{طه:١٥} فالضمير في أخفيها إشارة إلى اسم سابق هو "الساعة"،وأغنى الضمير عن إعادة الاسم، اعتماداً على فهم المتلقي، بالإضافة إلى الإيجاز والاختصار .

وبتتابع الآيات التي يحل فيها ضمير لاحق، يشير إلى اسم ظاهر، والغرض العام الذي يجمع هذا النوع من الإحلال ،والإيجاز، والاختصار، وكذلك مشاركة المستمعين في فهم الآيات، بإثارة أذهانهم لتظل دائماً في حالة يقظة مع النص القرآني .وهذه الآيات الواردة في سورة طه هي :

"فإنه يعلم السر وأخفى {طه:٧}فالضمير يعود على لفظ "الرحمن " في الآية السابقة .

"لعلي آتيكم منها بقبس"{طه:١٠} ،"فلما أتاها" {طه:١١} الضمير في" منها" وفي "أتاها" يعود على النار التي رآها موسى ليلاً.

"فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه "{طه:١٦}الإشارة في "عنها،بها" تعود على الساعة أي يوم القيامة ،والضمير في "هواه" إشارة إلـــي الاســـم الموصـــول السابق.

"أتوكأ عليها ،وأهش بها على غنمي، ولي فيها ..."{طه:١٨}الضمائر في الآية تعود على عصا موسى.

وكذلك الضمائر في قوله ــ تعالى ــ :"قال ألقها يا موسى، فألقاها "{طه:١٩،٢٠}، "قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى"{طه:٢١}.

"اذهب إلى فرعون إنه طغى "{طه:٢٤}

"واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي "{طه:٢٨} الإشـــارة فـــي الفعـــل المـــضارع "يفقهوا"تعود على فرعون وقومه.

"اشدد به أزري وأشركه في أمري"{طه:٣١،٣٢}الإشارة بالضمير في الآية تعـــود على هارون .

"أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقـــه الـــيم بالـــساحل يأخـــذه عـــدو لـــي له"{طه:٣٩}، "هل أدلكم على من يكفله"{طه:٤٠}الضمائر في الآيتين تعـــود علـــى موسى ــ عليه السلام ــ

"كي تقر عينها "{طه:٤٠}الضمير في "عينها" يشير إلى أم موسى .

"إنه طغى"،"فقولا له " ،"لعله يتذكر"{طه:٤٣،٤٤} الضمائر في الآيات تعـــود علـــى فرعون .

"فأتياه"{طه:٤٧}الضمير الأول وهو ألف الاثنين إشارة إلى موسى ،وهارون ،والهاء تشير إلى فرعون.

"ولا تعذبهم "{طه:٤٧} الضمير هنا حل محل بني إسرائيل، وقد سبق ذكره في السورة .

"فما بال القرون الأولى، قال علمها عند ربي"{طه:٥٢}الضمير في "علمها" إشارة حلت محل "القرون الأولى" السابق ذكرها في الآية .

"وسلك لكم فيها سبلاً"{طه:٥٣}الهاء حلت محل "الأرض".

"فأخرجنا به أزواجناً "{طه:٥٣}الضمير في "به"تحل محل "الماء".

"منها خلقناكم ،وفيها نعيدكم ،ومنها نخرجكم تارة أخرى"{طه:٥٥}الضمائر المجرورة حلت محل الأرض وأغنت عن تكرارها .

"ولقد أريناه آياتنا كلها"{طه:٥٦}الهاء في أريناه إشارة إلى فرعون ،والضميرفي كلها يشير إلى "آياتنا"

"فلنأتينك بسحر مثله"{طه:٥٨}."فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه"{طه:٥٨}.

"فتولى فرعون فجمع كيده "{طه:٦٠} . "قال لهم موسى"{طه:٦١}.

"فإذا حبالهم وعصيهم يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى"{طه:٦٦}. "قال آمنتم به قبل أن آذن لكم"{طه:٧١}."ومن يأته مؤمناً"{طه:٧٤} ."جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها"{طه:٧٦} ."فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً" {طه:٧٧}. "فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم"{طه:٧٨}. "وأضل فرعون قومه وما هدى "{طه:٧٩}."وأضلهم السامري" {طه:٨٥} ."حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها "{طه:٨٧} ."فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار " {طه:٨٨} ."أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم نفعاً"{طه:٨٩}."ولقد قال لهم هارون"

{طه:٩٠} ."قالوا لن نبرح عليه عاكفين"{طه:٩١}. "ما منعك إذ رأيتهم ضلوا "{طه:٩٢}.

"وإن لك موعداً لن تخلفه"{طه:٩٧}. "لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم "{طه:٩٧}."إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو "{طه:٩٨}. "من أعرض عنه "{طه:٩٩} . "خالدين فيه وساء لهم "{طه:١٠١}.

"يتخافتون بينهم "{طه:١٠٣}. "إذ يقول أمثلهم طريقة"{طه:١٠٤}. "ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً، فيزرها قاعاً صفصفاً ،لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً "{طه:١٠٥،١٠٦،١٠٧}.

"وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً"{طه:١١٣}."من قبل أن يقضى إليك وحيه"{طه:١١٤}. "ولم نجد له عزماً"{طه:١١٥}."إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى"{طه:١١٨}.

"فوسوس إليه الشيطان"{طه:١٢٠}. "فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما "{١٢١}. "ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً "{طه:١٢٤}. "أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم "{طه:١٢٨}. "وقبل غروبها "{طه:١٣٠}. "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه"{طه:١٣١}. "وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها "{طه:١٣٢}.

"وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه، أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى "{طه:١٣٣}.

"ولو أنَّا أهلكناهم "{طه:١٣٤}. فهذا هو مجمل الآيات التي ورد فيها الإحلال بالضمير في سورة طه،وكانت الإشارة فيه إلى مفرد.

الإشارة اللاحقة التي تشير إلى جملة:

"من الممكن أن ترد عناصر بديلة مثل "هكذا"أو "ذلك" وتكون شكلاً بدلاً معبراً عن حادث أو موقف".(١٩)

"فمن الممكن أن يستلزم الأمر الربط بين الأشكال البديلة، وبين تراكيب بتمامها ،أو جمل بأسرها ... إن استبدال التراكيب يتم باستعمال الأشكال البديلة التي تشير إلى بقاء محتوى التراكيب في حالة نشطة، خلافاً لشكل إخراجها في عالم النص . ونرى في المثال التالي استعمال "ذلك" شكلاً بديلاً يدل على الإقرار بما نطق سابقاً : هل هو في البيت؟ أعتقد ذلك. (٢٠)

وقد ورد هذا النوع في سورة طه على النحو التالي : "الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى "{طه:٥٣} فاستخدام الشكل البديل "ذلك" حل محل جمل سابقة في الآيات إبقاءً لمحتوى الجمل السابقة ــ والتي تتحدث عن نعم الله على الناس ــ في حالة نشطة في ذاكرة المخاطبين، ولربط حاضر النص بسابقه، مما عمل على سبك النص في قالب متماسك ، حتى إذا سقطت كلمة من سياق التركيب النصي، وجد المخاطب خللاً فيتماسك التركيب.

ومن قوله تعالى:"جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكى" {طه:٧٦} فالشكل البديل "ذلك" يحل محل جملة سابقة هي "جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها" فالشكل البديل عمل على اختصار الكلام، مع بقاء المعنى نفسه، وسبك التركيب النصي، وحافظ على نشاط الذهن للمخاطبين، ليكونوا مشاركين في صناعة النص .

"ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها، فكذلك ألقى السامري "{طه":٨٧} "كذلك" شكل بديل حل محل جملة "حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها " وحلت محلها في إيجاز، وربط لسبب فعلهم من عبادة العجل بما فعله السامري، من وضع الذهب في النار ،وصناعته للعجل ،فهم فعلوا كما فعل السامري .

"وكذلك اليوم تنسى"{طه:١٢٦}"كذلك" شكل بديل يشير إلى حال الكافرين في الدنيا من نسيانهم للآخرة، فالشكل البديل أدى معنى جملة سابقة ،وعمل على استحضار صورة العصيان من الكافرين ــ في الدنيا ــ لتكون في أذهانهم حاضرة عند الحساب ليزدادوا ندماً على معصيتهم .

"أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى" {طه:١٢٨} الشكل البديل "ذلك" يشير إلى جملة "أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم" .

فالإحلال بالشكل البديل إحدى وسائل السبك النصي ،والذي يجعل التركيب النصي متماسكاً.

الإحلال مع التنوين :

يعد التنوين من وسائل الإحلال، ــ وأخص تنوين العوض ــ فقد يأتي التنوين عوضاً عن جملة، أو اسم، أو حرف .[٢١] وتتناول الدراسة تنوين العوض عن جملة، حيث ورد هذا النوع من الإحلال في سورة طه في موضعين، هما :

"ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، يومئذٍ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً، يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً"{طه:١٠٥ــــ ١٠٩} التنوين في " يومئذ"في الآيات إشارة لاحقة حلت محل جملة سابقة ،وهذه

الجمل تتحدث عن أحداث القيامة، فالتنوين أغنى عن تكرار الأحداث التي تحـــدث يوم القيامة، كذلك عمل التنوين على جعل ذاكرة المخاطبين نشطة في استحـــضار الأحداث، فعمل التنوين وهو حركة بسيطة على ربط سياق الكلام، بالإضافة إلـــى الاختصار ما جعل النص أكثر حبكاً .

إحلال المصدر محل الفعل :

يعمل المصدر عمل الفعل مفرداً، نحو:عجبت من ضرب زيد عمراً، ومضافاً إلـــى المفعول، أو إلى الفاعل . [٢٢] ويعمل المصدر عمل الفعل في موضعين:

١. أن يكون نائباً عن الفعل، نحو:ضرباً زيداً .

٢. أن يكون المصدر مقدراً بـــ "أن"والفعل ،أو بـــ "ما" والفعل [٢٣]. وقد ينوب المصدر عن الفعل في الدلالة على معناه فقط . [٢٤]

وقد ورد هذا النوع من الإحلال في سورة طه في ثلاثة مواضع، هـــي:"إلا تذكرة لمن يخشى" {طه:٣}،فالمصدر "تذكرة" يحل محل الفعل وهو مؤول بـــــ أن والفعل، فالبنية الأساسية للجملة هي: إلا أن يتذكر من يخشى

إلا+ أن + الفعل المضارع + الفاعل + جمل الصلة .

ولكن حدث لبناء الجملة تحويل بالحذف ،والإحلال، حيث حـــل المـــصدر محل الفعل فأصبح البناء الظاهري للجملة ،هو:

إلا + المصدر+ جار ومجرور+ جملة الصلة

فحل المصدر محل الفعل لفظاً، ومعنى، حيث أفاد الإحلال بالمصدر معنى الفعل المضارع ،وكذلك دل على تأكيد الفعل المحذوف ، لأن المفعول المطلق هنا، يأتي مؤكداً للفعل المحذوف .

"تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى "{طه:٤} فالمصدر هنا يحل محل الفعل، لأن البنية الأساسية للجملة، هي : ننزل القرآن تنزيلاً ممن خلق الأرض

فعل + فاعل +مفعول به+ مصدر {مفعول مطلق} +جار ومجرور+ جملة الصلة

وحدث للبناء الأساسي للجملة تحويل بالحذف والإحلال، حيث حل المصدر محل الفعل ،فأصبح البناء الظاهري للجملة هو: تنزيلاً ممن خلق الأرض

مصدر{ مفعول مطلق}+ جار ومجرور +جملة الصلة

ولأن"اللغة هي التعامل بالكلمات، ومهمتها حدوث التفاهم بين الجماعة اللغوية، لهذا فإن الموقف اللغوي إذا فهم بمجرد ذكر بعض عناصره اللغوية دون البعض الآخر ،جاز الاستغناء عن بعض هذه العناصر من هذا المنطلق ".[٢٥]

"ورضي له قولاً"{طه:١٠٩} فالمفعول المطلق "قولاً"حل محل الفعل المحذوف والتقدير "رضي له أن يقول قولاً"فالمصدر حل محل الفعل في المعنى .

الإحلال في الحروف :

الإحلال في الحروف من وسائل الاتساع في اللغة العربية، والعرب يستغنون عن بعض الألفاظ ببعض ؛ بهدف الوصول إلى سلامة التركيب وتجويد المعنى ؛وذلك لأن "كل جملة صحيحة نحوياً تُعد جملة مستقيمة، ولكن الحكم على هذه الاستقامة بالحسن ، والكذب يتعلق بالمعنى الذي تفيده عناصر الجملة عندما تترابط ".[٢٦] وقد يُعطى الشيء حكم ما أشبهه في معناه، أو في لفظه . [٢٧]

وتعددت صور الإحلال في الحروف في سورة طه ،على النحو التالي:

الباء بمعنى السببية :

"اشدد به أزري "{طه:٣١} فالباء هنا حلت محل اسم، وأدت معناه، فهي هنا بمعنى "بسبب" والمعنى "هارون أخي أشدد بسببه أزري"، فهذا الإحلال للإيجاز والاختصار .

ومن ذلك قوله ــ تعالى ــ على لسان هارون :"يا قوم إنكم فتنتم به"{طه:٩٠}فهارون يخاطب قومه بأنهم فتنوا بسبب العجل،لأن الضمير يعود على العجل،وفتنتهم بسبب العجل لا بملاصقتهم للعجل.

"على" بمعنى" إلى ":

"قال يا آدم هل أدلكم على شجرة الخلد وملك لا يبلى "{طه:١٢٠} فحرف الجر "على" هنا تحمل معنى حرف جر آخر هو"إلى" و المعنى على ذلك "هل أدلك إلى شجرة الملك " وذلك لأن الفعل "دلّ" متعدٍ بحرف الجر "على" أقول "دَلَّه على الطريق يدله بالضم، دِلالة".(٢٨)

ولكن ما المعنى الجديد الذي حملته الآية بعد إضافة هذا المعنى الجديد لها؟ والجواب يأتي في أن حرف الجر "على" يحمل معنى الاستعلاء، وحرف الجر "إلى" يحمل معنى انتهاء الغاية، فعبرت الآية بحرف الجر "على" بدلاً من "إلى"؛ ليحمل الحرف المستخدم في السياق ليدل على معنى الحرفين معاً، الاستعلاء، وانتهاء الغاية، في نفس الوقت، وذلك ليحمل الكلام من الشيطان إغراءً لآدم للأكل منى الشجرة المحرمة، فيصور إبليس لآدم أن عاقبة وغاية أكله من تلك الشجرة، هي العلو في الحياة مع الخلود .

"في " بمعنى "على" :

قال ــ تعالى ــ على لسان فرعون :"ولأُصلبنَّكم في جذوع النخل" {طه:٧١}فاستخدام حرف الجر "في" هنا في سياق التهديد للسحرة من فرعون، هذا

الحرف الذي يدل على الظرفية، استخدمه بمعنى "على" الدال علـــى الاســـتعلاء ، وذلك ليحمل حرف الجر "في" المعنيين للحرفين ، وليبعد فرعون أي معنى للرفعـــة حتى وإن كانت في اللفظ فقط،للسحرة بعد أن آمنوا .

"اللام" بمعنى "الباء" :

"قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ...." {طه:٧١}، فقوله ــ تعالى ــ "آمنتم لـــه "بمعنى آمنتم به فالفعل يتعدى بحرف الجر الباء، وقد ذكر ابن منظور قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من قال سقانا الله، فقد آمن بالله، وكفر بالنجم . [٢٩] فـــاللام استخدمت هنا، لتدل على التصديق المطلق من السحرة لموسى.

"من " بمعنى "بعض" :

ورد هذا النمط في ثلاثة مواضع في سورة طه، هي:

"لنريك من آياتنا الكبرى "{طه:٢٣}و

"فغشيهم من اليم ما غشيهم "{طه:٧١}.

"كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق "{٩٩}.

"من" في الآيات الثلاثة السابقة تحمل معنى التبعيض، ففي الآيـــة الأولـــى معنى الآية "لنريك بعض آياتنا" فما أراه الله لموسى بعض الآيـــات، ولـــيس كـــل المعجزات، لأن سياق الحديث كان عن معجزة اليد والعصا، ولكن جاءت معجزات أخرى بعد هاتين المعجزتين .

و الآية الثانية معنى حرف الجر فيها "فغشيهم بعض اليم الذي غشيهم " لأن الغرق كان في جزء من البحر، وليس البحر كله .

والمعنى في الآية الثالثة "كذلك نقص عليك بعض أنباء ما قد سبق " لأن القرآن لم يُفصل جميع قصص السابقين، بل قص بعض من قصصهم .

فالإحلال عمل على سبك التراكيب النصية في سورة طه، سواء أكان الإحلال في الأسماء، أو الحروف .

والحمد لله رب العالمين ،،،،،،

الهوامش

١. لسان العرب ، مادة حلل
٢. الإنصاف ، ٤٨٥/٢ مسألة : ٦٨
٣. السابق : ٩٣/١ ، مسألة :١٣
٤. الأشباه والنظائر ،٧٨/١
5. see :An introduction to transformational Grammar . p. 74
٦. الكتاب ،١/ ٢٥ ،١٢١/٢
٧. الخصائص ،٤٧٠/٢
٨. السابق : ٦٦/٢ــ ٦٧
٩. الكتاب ،٢٨١/٢
١٠. قضايا التقدير النحوي : ١٨٠،١٨٩ ،د/محمود سليمان ياقوت ،دار المعارف ،القاهرة ١٩٨٥
١١. علم النصي بين النظرية والتطبيق : ٣٨
١٢. مدخل إلى لغة النص تطبيقات لنظرية روبرت دي بو جراند وولفجانج ديسلر : ٩٢ وما بعدها.
١٣. المقتضب للمبرد : ٢٥/٤ ،وانظر : شرح ابن عقيل : ٩٢/٢ .
١٤. انظر : السابق نفسه
١٥. انظر : شرح ابن عقيل ١٦٩/٣
١٦. مدخل إلى علم لغة النص :٩٢، د/إلهام أبوغزالة، علي خليل حمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،١٩٩٩م
١٧. المرجع السابق :٩٢
١٨. المرجع السابق : ٩٣
١٩. انظر :مدخل على علم لغة النص ،٩٥،د/ إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد .
٢٠. المرجع السابق: ٩٨.
٢١. انظر شرح ابن عقيل، ٢٠/١ تحقيق /محمد محيي الدين عبد الحميد دار الطلائع، القاهرة / ٢٠٠٤.

٢٢. انظر المفصل في صناعة الإعراب :٢٨١/١،للزمخشري، دار الجيل .

٢٣. شرح ابن عقيل :٧٧/٣

٢٤. المرجع السابق : ١٥٠/٢

٢٥. الأصول : ٧٤/١ لابن السراج ،تحقيق :عبد الحميد الفتلي ،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،١٩٨٤.

٢٦. النحو والدلالة :٦٣ ،حماسة عبد اللطيف، القاهرة، ١٩٨٣.

٢٧. انظر : مغني اللبيب :٨٨٤/١ ،لابن هشام الأنصاري تحقيق :محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٨. مختار الصحاح :٨٨/١

٢٩. لسان العرب، مادة آمن :١٧٧/١

المراجـع

- القرآن الكريم
- الأشباه والنظائر للسيوطي، تحقيق:فايز ترحيني،دار الكتاب الربي، بيروت،١٩٨٤ م.
- الأصول في النحو ،لابن السراج،تحقيق:عبد الحميد الفتلي،مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م .
- الإنصاف في مسائل الخلاف ،لابن الأنباري، تحقيق :محمد محيي الدين عبد الحميد ،دار الفكر.
- الخصائص لابن جني، تحقيق:محمد علي النجار ،دار الهدى للطباعة والنشر،بيروت.
- شرح ابن عقيل، تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد ،دار الطلائع ،القاهرة ،٢٠٠٤م.
- علم اللغة النصي بين بين النظرية والتطبيق ،د/صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء ،القاهرة ٢٠٠٠م.
- قضايا التقدير النحوي ،د/محمود سليمان ياقوت ،دار المعارف،القاهرة،١٩٨٥.
- الكتاب لسيبويه ،تحقيق :عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- لسان العرب، لابن منظور، طبعة دار المعارف.
- مختار الصحاح،للرازي ،تحقيق:محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥م.
- مدخل إلى علم لغة النص تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراند، وولفجانج ديسلر، د/إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ،لابن هشام الأنصاري، تحقيق :محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت .
- المفصل في صناعة الإعراب، جار الله الزمخشري، دار الجيل .

- المقتضب للمبرد، تحقيق :محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- النحو والدلالة، محمد حماسة عبد اللطيف، ط١، القاهرة، ١٩٨٣م .
- المرجع الأجنبي:
- An Introduction to transformational grammar Bach Emmon U S A 1964